الفصل الثانى

مكانة المرأة فى فكر الإمام محمد عبده

إن مسألة المرأة ينبغى ألا تقرأ فى فكر الإمام محمد عبده أو تدرس بمعزل عن منطلقات وركائز رسالة الإسلام التى تضفى على كل المخلوقات حرمة وحصانة، وتعتبر أن لكل كائن نصيبا من الاحترام. فكل مخلوقات الله – طبقا للنص القرآنى قال تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1]، بما فيها الدواب والطيور وغير ذلك من الكائنات التى تعيش فى البر والبحر، وهى تتعبد لله تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2]، كما ورد فى نص قرآنى آخر. ومن بين تلك الكائنات يعد الإنسان مخلوق الله المختار وخليفته فى إعمار الأرض، وهذه المكانة الخاصة يتمتع بها كل إنسان، ذكرا كان أم أنثى، باعتبار أن حق الكرامة منصوص عليه فى القرآن لكل بنى آدم، بغض النظر عن جنسيتهم أو عرقهم أو ديانتهم.

إن الرسالة الإسلامية نزلت ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3]، والخطاب الإلهى سجل بوضوح أنه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾[4]، وإذا أضفنا إلى ذلك حق الكرامة المنصوص عليه فى القرآن وينصرف إلى البشر أجمعين، فينبغى أن يكون معلوما أننا بصدد رسالة شملت الجميع بالرحمة، وحفظت لكل مخلوق كرامته، الأمر الذى يعنى – ضمن ما يعنى – أن أى حط من قدر المرأة ومساس بكرامتها، يعد خروجا على التعاليم.

أو فى أحسن أحواله تأويلا فاسدا لها، يسيىء إلى الرسالة بأكثر مما يسيىء إلى المرأة، من حيث إنه يعد عدوانا على مقاصدها وتعاليمها[٥].

إن التقاليد هزمت التعاليم فى الخبرة العربية بوجه أخص – ذلك أن العصر الإسلامى الأول – الراشدى على وجه التحديد – شهد النقلة الكبرى فى وضع المرأة، وحررها من آثار الجاهلية التى حقرت من شأنها، حتى لم تتردد فى (وأدها) خلاصا من عار وجودها، ولكن الحقبة اللاحقة شهدت تراجعات عدة على ذلك الصعيد، ضمن ما شهدته الأمة من انتكاسات فى أوجه الحياة الأخرى، وكانت النتيجة أن تآكلت مكتسباتها حينا بعد حين، حتى ظهرت بصورة نسبية فكرة (الوأد) مرة أخرى، فى صيغة رمزية وليست مادية. فاستعانت المجتمعات فى حقب التردى تقاليد الشعور بالعار من وجود المرأة ومن أى حضور تمثله، سواء أكان ذلك فى أنشطة الحياة الاجتماعية والعامة أم فى أداء الصلوات والمساجد. وفى هذا السياق تنافس البعض فى تأويل النصوص الشرعية، بل ووضع النصوص التى تخدم أغراضهم. فظهرت مقولات تعمم اتهام النساء بأنهن ناقصات عقل ودين، وأخرى تحرم عليهن الولاية، وثالثة تحظر التعليم عليهن، ورابعة تمنعهن من الخروج من البيت. بل وجدنا من يقول بإن المرأة لا تخرج إلا ثلاث مرات، من بطن أمها إلى العالم، والثانية من دارها إلى بيت زوجها، والثالثة من بيتها إلى القبر!

وهذا الكلام وجد طريقه للأسف إلى بعض الكتب التراثية، حتى إن الراغب الأصفهانى عقد فى كتابه «محاضرات الأدباء» فصلا عن

البنات تحت عنوان «فائدة موتها وتمنيه»، نسب فيه إلى نبى الإسلام قوله: «نعم الختن القبر – و«دفن البنات من المكرمات»![٦].

أدار القرآن الحديث عن قوامة الرجال على النساء فى أسلوب منطقى مقنع يحمل أولى الألباب على التسليم بها والإقرار بمزيتها ويدعو النساء بخاصة إلى الاعتراف بأنها غنم لهن قبل أن تكون غرما عليهن وكسب يسرهن لا خسار يضرهن، وما القرآن عنا ببعيد فالمتطوف بين آياته وجمله وجوامع كلمه نجده قد أحاط الرجل بأوامر ونواهٍ صريحة وضمنية مستقاة من فحوى الكلام، كلها تكرم المرأة وتصحح أوضاعها وتطيب حياتها وتحمل الناس على الاعتراف بإنسانيتها غير مجذوذة ولا منقوصة وتطمئنها على حقوقها فى حال الإمساك والتسريح وتبلور مسئولية الرجل عنها كقوله سبحانه ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾[٩] وقوله تعالى: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾[١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[١١] وقوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[١٢] وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[١٣] وقوله تعالى: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[١٤] وقوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾[١٥] وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾[١٦] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾[١٧] وكقوله تعالى فى شأن المطلقات:

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[١٨] وبقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[١٩].

يضاف إلى هذا ما احتوته السنة المطهرة من الوصية بهن والمسئولية عنهن والتحذير من الجور عليهن كقوله(صلى الله عليه وسلم): «اتقوا الله فى النساء»[٢٠] وكقوله(صلى الله عليه وسلم): «استوصوا بالنساء خيرا»[٢١][٢٢].

ويعد رفاعة الطهطاوى (١٨٠١م - ١٨٧٣م) أول من دافع عن المرأة فى مصر فى العصر الحديث، فقد سافر إلى فرنسا فى إحدى البعثات، وصنف عن هذه الرحلة كتاب (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) (المنشور بالقاهرة سنة ١٨٣٤م)، وفيه عقد مقارنة بين وضع المرأة فى فرنسا ووضعها فى مصر[٢٣]، ودعا المصريين إلى الأخذ بأفكار الثورة الفرنسية (المساواة.. الحرية.. الإخاء) وكان أول من طبقها على المرأة، ومارسها فى حياته وفى وثيقة زواجه، وكان بحق (الرائد الحقيقى لحركة تحرير المرأة)[٢٤].

كما تطرق السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) - وهو أستاذ محمد عبده - لحقوق المرأة فى الإسلام من زوايا متعددة، وأعلن رأيه فى قضية تحرير المرأة من النقاب، وكان لا يرى مانعا للسفور بشرط ألا يكون السفور مطية للفجور[٢٥]، وأعاد النظر فى التفسير التقليدى لعديد من التعاليم الإسلامية وخصوصا فى مجال العلاقات الزوجية ووضع المرأة[٢٦].

كما ساهم أيضا عبد الله النديم (١٨٤٤ - ١٨٦٩م) خطيب الثورة العرابية فى هذا المجال، من خلال مقالات كتبها فى مجلة (الأستاذ)،

على هيئة محاورات سماها (مدرسة البنات)[٢٧]، أبدى فيها رأيه فى وجوب تعليم البنات، وأن المرأة الجاهلة من أسباب تدهور المجتمع[٢٨].

أيضا دافع قاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨م) - وهو يعد صديقا للإمام محمد عبده - عن تحرير المرأة، حتى أصبح اسمه علما على حركة تحرير المرأة فى مصر[٢٩]، ويحتل قاسم أمين فى التاريخ الفكرى المعاصر مكانة بارزة، ويكفى أننا لا نذكر حركة تحرير المرأة العربية، إلا ونذكر معها كتابى «المرأة الجديدة» و«تحرير المرأة» والكتابان من تأليف قاسم أمين[٣٠].

ولم تتوقف المجهودات على مساهمة الرجال فقط، بل ساهمت بعض النساء فى تغيير وجهة نظر المجتمع تجاه المرأة، وكانت فى مقدمة هؤلاء (عائشة تيمور) (١٨٤٠ - ١٩٠٢م) التى ناقشت فى كتابها (مرآة التأمل فى الأمور)[٣١] حقوق الرجال على النساء، وحقوق النساء على الرجال، وقدمت تفسيرا جديدا لمعنى قوامة الرجال وشروطها[٣٢].

هذا بالإضافة إلى الصالونات الأدبية التى كانت تعقدها سيدات المجتمع الراقى، وعلى رأسهن الأميرة نازلى فاضل[٣٣](١٨٤٠ - ١٩١٣م)، وهى من الرائدات فى هذا المجال. وكانت لها مقالاتها الخاصة التى نشرتها تحت أسماء مستعارة، وقد افتتحت أول صالون أدبى سنة (١٨٨٠م) يؤمه الرجال، غالبيتهم من الأدباء والمفكرين والسياسيين، حيث ناقشوا القضايا السياسية والاجتماعية بما فيها وضع المرأة[٣٤].

وقد كان الإمام محمد عبده[٣٥](١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م) منشغلا بمسائل المرأة و فى عام (١٨٨١م) بدأ يمهد للإصلاحات

التعليميـة والاجتماعية التـى تخص المجتمع والمـرأة باعتبارها نصف المجتمـع، فكتب الإمام فـى موضوع الزواج فى الوقائـع المصرية التى كان يرأس تحريرها فى (٧ مارس ١٨٨١م) بعنوان (حاجة الإنسـان إلى الزواج)، وبدأ بهذا المقال يمهد لأفكار اختمرت فى ذهنه منذ مدة حيث يبـين المقال أهمية الزواج فـى بقاء النوع الإنسـانى، وحصول الارتباط بعلاقة المصاهرة بين الناس، والترابط الأسرى.

ويتضح رأى الأسـتاذ الإمام فى الموقف الإسلامى الحقيقى من قضايا الأسرة وعلاقات الرجل بالمرأة، فلقد قدمه فى آثاره الفكرية التى عرض فيها – إجمالا أو تفصيلا – لموقف الشريعة من هذه القضايا الثلاث:

أولا: علاقـة الرجل بالمـرأة، وطبيعة الرابطـة الزوجية، وموضوع المساواة بين الجنسين.

ثانيا: موقف الشريعة من الطلاق، وخاصة تقييد حق الطلاق لتلافى المضار المترتبة عليه.

ثالثا: موقف الشـريعة، والاجتهاد الإسلامى الحديث، من موضوع تعدد الزوجات[٣٦].

ولم يتحدث الإمام فى مقالاته عن إصلاح المرأة بشكل مستقل بل ربط حديثه عن المرأة بتنظيم علاقتها مع زوجها وتحسين أحوالها الشخصية ليتم بذلك صلاح الأسـرة، فعمل على استصدار قانون يقيد الطلاق ويقيد تعـدد الزوجات، ثم تناول فى تفسـيره للقرآن الكريم موضوع مسـاواة الرجل والمرأة فى الشريعة الإسلامية، ليثبت ما منحه الإسلام للمرأة من حقوق ضيعها المسلمون بالفهم الخاطئ لهذه الحقوق.

لقد أراد الإمام من المرأة أن تبرز إلى معترك الحياة، فتشارك الرجل في بناء المجتمع متأثرا بنموذجين من النساء في حياته تمثل أولهما في والدته التي غرست فيه أحاسيس الرحمة نحو المرأة منذ بداية وعيه، فقد كانت سيدة راضية بحياتها رحيمة بأبنائها، تحتبس في أعماقها حزنا وألما نتج عن تكرار زواجها واضطرارها ترك أبنائها من زوجها الأول، لتقترن بالثاني، والد الإمام محمد عبده الذي تزوج عليها بأخرى فعاشت في بيت تشاركها فيه أخريات يقول الإمام: (راضتها على الرحمة عواطف أمومة موزعة بين أولاد زوجين مختلفين، وصفى بعد ذلك نفسها ما كابدته من آلام في حياتها التي فرقت بينها وبين ما في حضنها من الأيتام، والتي أطارتها عن وكرها الهادئ لتعيش في دار غريبة رفيقة زوج قاس يضم في الحياة رفيقة أخرى)[٣٧].

أما النموذج الثاني من النساء فهي الأميرة نازلي هانم، إذ رأى فيها الإمام قوة الرأي والإرادة والكلمة المسموعة ليس فقط في أمورها الخاصة، وإنما في الأمور الاجتماعية العامة أيضا، فتمتعت الأميرة بإرادة قوية، وجرأة تفتقدها نساء عصرها، وكانت لا تحتجب عن الرجال، وتحاورهم وتناظرهم مناظرة الند للند، وتحتج على أقوالهم وآرائهم إذا لم توافق عليها، وكانت تعقد صالونا يجتمع فيه كبار رجال الدولة والأدب والفكر منهم الإمام محمد عبده[٣٨].

رأى الإمام محمد عبده نموذج المرأة الذي يحاكي شخصية الأميرة نازلي التي كانت جديرة بأن تحمل بنات جنسها على مشاركة الرجل في نهضة البلاد فهي المثال للمرأة العصرية، أما الأميرة نازلي فقد

أدركت مـا فى الإمام من تفوق عقلى وخلقى فخصته بمكانة تجمع بين الإجـلال والتقدير مما دفع الإمام للاهتمـام بقضايا المرأة متعلمة ومعلمة وعاملة، وزوجة تبنى أسرة تتمتع بكل حقوق المرأة المكرمة[٣٩].

شـغلت قضية المرأة جزءا من كتابـات محمد عبده الأخيرة، وحاول بهذه الكتابات أن يسـد الفجوة القائمة بـين واقع المدنية الحديثة التى أعطت المرأة كثيرا من الحقوق، وبين الواقع الذى تعيشـه المرأة المسلمة فى عصره[٤٠].

وكان أهـم ما يميز فكـر الإمام محمد عبده هو تفعيل القواعد الفقهية فى تأصيل الحلول الجزئية، وربما كان منهج المذهب المالكى فى النوازل والفتـاوى خير موجه له فى بناء الفروع على الأصول، بحيث أوضح أن الدين الإسـلامى (أبعد من أن يكون حجر عثرة فى سـبيل تطور المرأة، وأنه على العكس من ذلك يميل إلى رد حقوقها)[٤١].

إلا أن المسلمين لم يأخذوا بما جاء به القرآن من أحكام فى شأن المرأة بل أهملوه، وارتدوا فى كثير منها إلى ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية، فصـار الحال فى عصره نسـيان (مـا جاء القرآن مـن الأحكام لإصلاح البيوت بحسن معاملة النساء... وعادت إلى جهالة الجاهلية)[٤٢].

ومن هنا سـعى الإمـام محمد عبده إلى تصحيح وضـع المرأة، بطرح آراء متقدمـة وشملت نطاق الآراء التى أبداهـا، والقرارات التى اتخذها والأحـكام والفتاوى التـى انتهى إليها حل كثير من مشـكلات المرأة، بل تطوير وضعها، ومن أمثال هذه القضايا: هل تعدد الزوجات محمود خلقيـا أم مذمـوم؟ هل يترك حـق الطلاق حقا مطلقـا للرجل أم يقيد؟

هل التعليم أمر ضرورى للمرأة أم الأفضل والأعف والأكرم أن تبقى بلا تعليم؟ وهى مسائل وقضايا أجاب عنها محمد عبده فى حديثه عن حقوق المرأة فى الإسلام[٤٣].

تناول الإمام محمد عبده أوضاع المرأة من خلال تفسيره للآيات الواردة فى سورتى البقرة والنساء وربطها بواقع المرأة الذى تعيش فيه فى المجتمع ومالها من حقوق وما عليها من واجبات تجاه بيتها ومجتمعها، ومناقشة سبل النجاة للمرأة المسلمة من الظلم المفروض عليها من مجتمعها.

فاتبع فى تفسيره للقرآن الكريم عامة والآيات التى تتناول شؤون المرأة خاصة، المنهج العقلانى المستنير وشرحها شرحا وافيا مبينا ما أدخل على عقيدة المسلمين من تزييف وتضليل أدى بهم إلى سوء فهم أو جهل للمعنى القرآنى المقصود من الآية أو الحكم الشرعى الوارد فى الآية فتبع ذلك بالضرورة فساد فى التطبيق من قبل المسلمين. فعمد فى تفسيره إلى ربط القرآن بالواقع الذى يعيشه المجتمع، فإذا حثت الآية على خلق فاضل بين أثره فى صلاح الأمم وضياعه فى فسادها[٤٤].

عمل محمد عبده فى تفسيره على إخراج الآيات القرآنية الخاصة بالتنظيم الاجتماعى للأسرة المسلمة والمرأة إلى حيز التنفيذ عن طريق صياغتها فى مواد قانونية، وهذه ميزة انفرد بها الإمام عن غيره من المصلحين الاجتماعيين والمفسرين للقرآن الكريم والمهتمين كذلك بقضايا المرأة، فلم يكتف بشرح الآيات القرآنية المتعلقة بالمرأة وتوضيح المزايا التى خصها الإسلام بها بل عمل على تنفيذ ما ورد فى القرآن الكريم

فى حق المرأة وتمكينها من ممارسة تلك الحقوق بما يتوافق ومستجدات العصر الذى تعيشه المرأة المسلمة ليفتح لها باب الأمل بمستقبل إسلامى جديد.

ولا شك أن الإسلام برىء مما ألصقه به بعض المسلمين بسبب سوء الفهم والتطبيق لشريعة الله والغفلة التامة عن دور النساء فى إثراء الدعوة الإسلامية خاصة السيدة خديجة (رضى الله عنها) حيث كانت أول من آمن بالنبى (صلى الله عليه وسلم) وساندته بنفسها ومالها، والغفلة عن سُنته (عليه الصلاة والسلام) مع النساء عامة إلى أن لقى الله عز وجل وفاضت روحه الشريفة فى حجر السيدة عائشة (رضى الله عنها)[٤٥].

ويتساءل الإمام محمد عبده عن سبب الحال الذى تعيشه المرأة وكيف فقدت مكانتها وسلبت حقوقها باسم الدين والفهم الخاطئ، ووجه نداء إلى المجتمع المسلم ليغير هذا الفهم لدينه ويعيد النظر فى سلوكياته الاجتماعية المختلفة، يقول الإمام: (وقد كان الناس لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها، لا يرون للنساء شأنا فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها، حتى علمهم الوحى ذلك، ولكن الناس لا يأخذون من الوحى فى كل زمان إلا بقدر استعدادهم، وإن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان، وعادت إلى جهالة الجاهلية)[٤٦].

يشير الإمام محمد عبده إلى أن الإسلام قد كرم المرأة ووضعها فى درجة لم يرفعها إليها دين سابق، ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل

إليهـا أمة من الأمـم قبل الإسـلام ولا بعده، وأن أوربا بمـا بلغته من تقـدم فى مظاهر الحياة المدنية، وبما قدمتـه للمرأة من التكريم والتربية والتعليم، لا تزال دون المكانة التى رفع الإسلام المرأة إليها[٤٧].

بل نقد الإمام التفاسـير الأخرى المسـتمدة من الإسرائيليات، والتى حاولـت أن تجعل المرأة مخلوقا غير كامل، باعتبار أن حواء قد ذكرت فى التوراة بأنها خلقت من ضلع آدم، وهو تفسـير يرفضه الإمام قائلا: إن (القصة لم ترد فى القرآن كما وردت فى التوراة)[٤٨].

ويؤكد ذلك (تشارلز آدمس) وهو أن الشيخ محمد عبده وأنصاره كانوا يرون (أن الإسلام لا تتجلى محاسنه باعتباره دينا أنزل للناس كافة فى شـىء أكثر مما تتجلى فى تكريمه للمرأة... فالإسـلام يقر بمساواة المرأة بالرجل فى جميع الأمور الجوهرية)[٤٩].

ويشـير الإمام محمد عبده إلى أن القرآن ذكر مسـاواة الرجل والمرأة، فهما متسـاويان ومشتركان فى الإنسـانية التى هى مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشـر، معتمدا فى ذلك على تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[٥٠]، بالإضافة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٥١]. ويؤكده كذلك بقوله تعـالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٥٢].

وهذه المسـاواة مثبتة بما قرره القرآن من أن الرجل والمرأة لهما نفس الحقوق ونفس الواجبـات فى الدنيا والدين، فهما يتماثلان فى الحقوق

والواجبات، وفى الذات والاحساس، وفى الشعور والعقل، أى (أن كلا منهما بشر تام، له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه، وينفر منه)[٥٣].

أما الاعتداء على النساء لأجل التحكم أو التشفى أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذى لا يجوز بحال، قال (صلى الله عليه وسلم): «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها – إلى أن قال – فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[٥٤].

وختم الآية بقوله عز وجل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٥٥]، ولذكر العزة والحكمة هنا وجهان:

أحدهما: إعطاء المرأة من الحقوق على الرجل مثل ما له عليها بعد أن كانت مهضومة الحقوق عند العرب وجميع الأمم.

الثانى: جعل الرجل رئيسا عليها، فكان من لم يرض بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعا لله تعالى فى عزة سلطانه، ومنكرا لحكمته فى أحكامه. فهى تتضمن الوعيد على المخالفة كما عهدنا من سُنة القرآن[٥٦].

(وسنعرض فى الحديث عن المساواة بين الرجل والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده قوله فى مسألة القوامة والدرجة).

أما مسألة ضرب المرأة فهذه مسألة ينبغى البحث فيها أن يبدأ بتحرير طبيعة العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، وهى الطبيعة التى تضبط إطارها نصوص شرعية عديدة، من بينها التوجهات القرآنية

مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾[٥٧] ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[٥٨] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾[٥٩] – والأحاديث النبوية الشريفة كقوله (صلى الله عليه وسلم): «استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن لكم من نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن فى بيوتكم من تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن»[٦٠].

أما بخصوص قول الله سبحانه: ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾[٦١] يتضح من النص أن الكلام لا ينصرف إلى عموم النساء، لأن الآية تقسم النساء إلى قسمين، فالصالحات ليس للرجال عليهن شىء من سلطان التأديب. وإنما سلطانهم على القسم الثانى الذى بينه وبين حكمه الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾[٦٢]، أى خروجهن على العرف والمألوف وهو ما أوضحه الإمام محمد عبده، واستطرد قائلا: (إن القانتات لا سبيل عليهن حتى فى الوعظ والنصح، فضلا عن الهجر والضرب)[٦٣].

ويتضح من ذلك أن المرأة المعنية بهذا النص إما أن تكون سيئة الخلق مع زوجها، أو أن سلوكها لا يطمئن إليه. وفى الحالتين فإن الزوج ليس له أن يبادر بضربها، وإنما عليه أن يبدأ بوعظها وعتابها، وإذا استمرت على مسلكها فله أن يهجرها فى مضجعها، وإذا لم يجد هذا

ولا ذاك فالضـرب هو آخر الدواء. على حد تعبير الشـيخ محمد الغزالى فإن (التأديب يكون بالسـواك مثلا، فـلا يكون ضربا مبرحا، ولا يكون على الوجـه، ففى الحديث: ولا تضرب الوجـه، ولاتقبح أى لا تقول لا قبحك الله)[٦٤].

وقـول الله تعـالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[٦٥] ويفسر الغيب هنا هو ما يستحى من إظهاره أى حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين فلا يطلع أحد منهن على شىء مما هو خاص بالزوج[٦٦].

وقد قسـم الإمام النساء إلى قسمين: الصالحات (ليس للرجال عليهن شـىء من سـلطان التأديب، وإنما سـلطانهم على القسـم الثانى الذى بينه وبين حكمه بقولـه عز وجل ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾[٦٧] – أى خروجهن عن العرف والمألوف ...

كما يقرر أن القرآن الكريم قد استخدم من وسائل التعبير ما يدل على أن (نشـوز) المرأة هو أمر عارض وليس أصيـلا فيها، وأنه ليس القاعدة بل الشـذوذ، فيقول: (إن الله تعالى لما كان يحب أن تكون المعيشـة بين الزوجين معيشـة محبة ومودة وتراض والتئام، لم يشـأ أن يسند النشوز إلى النساء إسنادا يدل على أن من شأنه أن يقع منهن فعلا، بل عبر عن ذلك بعبارة تومئ إلى أن من شـأنه ألا يقع لأنه خروج عن الأصل الذى يقوم به نظام الفطرة، وتطيب به المعيشة، ففى هذا التعبير تنبيه لطيف إلى مكانة المرأة وما هو الأولى فى شـأنها، وإلى ما يجب على الرجل من السياسة لها وحسن التلطف فى معاملتها)[٦٨].

فينهى الإمام محمد عبده عن الإضرار بالنساء وذلك بتفسيره لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٦٩].

فيفسر الأستاذ الإمام هذا النهىَ عن الإضرار بالزوجة فيقول:[٧٠] ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾[٧١]: هذا وعيد بعد وعيد، وتهديد لمن يتعدى حدود الله فى هذه الأحكام أى تهديد، والسبب فيه حمل المسلمين على احترام صلة الزوجية، وتوقى ما كانوا عليه فى عهد الجاهلية، فقد كانوا يتخذون النساء لعبا، ويعبثون بطلاقهن وإمساكهن عبثا.

وذلك يعنى ألا تتهاونوا بحدود الله تعالى التى شرعها لكم فى آية جريا على سنن الجاهلية، فإن هذا التهاون والاعتداء للحدود، بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى، يعد استهزاء بآياته. ومن هنا قال بعض السلف: (المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بربه. ولا شك أن الذى يخالف أمر الله وينقض هذه العهود بعد توثيقها طلبا لشهوة من شهواته، أو استمساكا بعادة من عاداته، فهو جدير بأن يعد مستهزئا بآيات الله غير مذعن لها)[٧٢].

ويصرح الإمام محمد عبده أنه بعد التحذير من التهاون بحقوق النساء وجعل العابث بأحكام الله فيها مستهزئا بآياته – وفى ذلك من الوعيد والترهيب ما فيه – أراد تعالى أن يقرر هذه الأحكام فى النفوس

بباعث الترغيب فيها بالتذكير بفوائدها ومزاياها، وبيان المنة فى هداية الدين التى هى منها، فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾[٧٣]، أى امتثلوا ما ذكر آنفا من أمر ونهى، وتذكروا نعمة الله تعالى عليكم بالفطرة السليمة فى الرابطة الزوجية المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٧٤] وما أنزله عليكم من آيات الأحكام المكملة للفطرة فى الزوجية والحكمة فيها، حال كونه يعظكم بالجمع بينهما...

وقد أفسدت على الناس تلك المودة والرحمة، وحجبهم عن الموعظة بالحكمة، وأضعف فى نفوس الأزواج ذلك السكون والارتياح، غرور الرجال بالقوة وطغيانهم بالغنى، وكفران النساء لنعمة الرجال وحفظ سيئاتهم، وتماديهن فى الذم لها والتبرم بها، وما مضت به عادات الجاهلية فى بعض المتقدمين وعادات الفرنج فى المعاصرات والمعاصرين، وقلد به الناس بعضهم بعضا، والله سبحانه وتعالى ذكرنا: بنعمته علينا فى أنفسنا لنزيح عن الفطرة السليمة ما غشيها بسوء القدوة واتباع الهوى، ونشكرها له سبحانه بالمحافظة عليها بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها[٧٥].

□□□

هوامش الفصل

(١) سورة الأنعام – آية ٣٨.
(٢) سورة الإسراء – آية٤٤.
(٣) سورة الأنبياء – آية ١٠٧.
(٤) سورة طه – آية ٢.
(٥) فهمى هويدى – الإسلام وحقوق المرأة – صـ١.
http://www.arabhdr.org//publications/other/ahdr/papers/2005
(٦) المرجع السابق – الصفحة نفسها.
(٧) سورة البقرة – آية ٢٢٩.
(٨) سورة البقرة – آية ٢٣١.
(٩) سورة البقرة – آية ٢٣٢.
(١٠) سورة البقرة – آية ٢٣٣.
(١١) سورة البقرة – آية ٢٣٦.
(١٢) سورة البقرة – آية ٢٤١.
(١٣) سورة النساء – آية ٤.
(١٤) سورة النساء – آية ١٩.
(١٥) سورة النساء – آية ٢٤.
(١٦) سورة النساء – آية ١٢٩.
(١٧) سورة النور – آية ٣٢.

(١٨) سورة الطلاق – آية ٥.

(١٩) سورة التحريم – آية ٦.

(٢٠) الحديث رواه مسلم فى صحيحه – كتاب الحج باب حجة النبى (صلى الله عليه وسلم) – ٢٤٦٩.

(٢١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه – كتاب النكاح – باب: الوصاة بالنساء – حديث ٤٨٩٠ – ج١ – صـ١٩٨٧، ورواه مسلم فى كتاب الرضاع– باب: الوصية بالنساء – حديث ١٤٦٨ – ج٢ – صـ١٠٩.

(٢٢) د. عبد المنعم سيد حسن – طبيعة المرأة فى الكتاب والسنة – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ط١– ١٩٨٥م صـ١٦١.

(٢٣) رفاعة الطهطاوى – تخليص الإبريز فى تلخيص باريز– منشور ضمن كتاب أصول الفكر العربى الحديث – تحقيق: محمود فهمى حجازى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٧٤م – صـ ١٨٧.

(٢٤) لويس عوض – المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى – ج١ (قضية المرأة) – معهد الدراسات العربية – جامعة الدول العربية – القاهرة – ١٩٦٢م – صـ ١١٢، وأيضا: حسين فوزى – رفاعة الطهطاوى – رائد فكر وإمام نهضة – ضمن سلسلة أعلام العرب – الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة – ١٩٨٧م – صـ١٦٠.

(٢٥) جمال الدين الأفغانى – الأعمال الكاملة – تحقيق: د. محمد عمارة – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ودار الكتاب العربى – ١٩٨٦م – ج١ صـ ٤، ٥، وأيضا: الخاطرات جمعها

وحققهـا: محمد باشـا المخزومى – المطبعـة العلمية بيروت – ١٩٣١م – صـ١١٢.

(٢٦) د. منى أحمد أبو زيد – الإمام محمد عبده وقضايا المرأة من موقع http://www.altasamoh.net/Article صـ٢.

(٢٧) فاتـن عبد الرحمن الطنباوى – موقف الصحافة تجاه قضايا المرأة – رسـالة ماجسـتير – كلية الإعلام – جامعة القاهرة – ١٩٨٦م – صـ١٤، نقلا عن: د. منى أحمد أبو زيد – الإمام محمد عبده وقضايا المرأة – صـ٢.

(٢٨) د. منى أحمد أبو زيد – الإمام محمد عبده وقضايا المرأة – صـ٢.

(٢٩) د. عاطف العراقى – الشـيخ الإمـام محمد عبده والتنوير – قرن مـن الزمان علـى وفاته – دار الرشـاد – القاهرة ط١ – ٢٠٠٧م – صـ٢٩٣، وانظر أيضـا د.عاطف العراقى – العقـل والتنوير فـى الفكر العربى المعاصر – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشـر – الإسكندرية – ط ٣ – ٢٠٠٤م – صـ ٢٢٥ ومابعدها.

(٣٠) المرجع السابق – صـ ٢٩٥.

(٣١) عائشـة تيمور – مرآة التأمل فى الأمور – مطبعة المحروسـة – القاهرة – (د.ت).

(٣٢) د. منى أحمد أبو زيد – الإمام محمد عبده وقضايا المرأة – صـ٢.

(٣٣) نـازلى بنت مصطفى فاضل، أميرة من ربات الرأى والعقل والفضل والأدب، نشـأت نشأة حسنة وتلقت العلوم والآداب العديدة التى أهلتها للاشـتغال بالقضايا العمومية، فشاركت بالقضايا السياسية

العثمانية والمصرية، كانت تحسن اللغتين الفرنسية والإنكليزية كما تحسن اللغتين العربية والتركية، لها صالون أدبى يزوره كبار رجال السياسة والأدب وأعيان الدولة فى ذلك الوقت منهم محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم، وكل من نبغ من رجال مصر إلا ويذكر لها مآثرها أو يعترف لها بصيحة نافعة، توفيت ١٩١٤م (انظر أعلام النساء – عمر رضا كحالة – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة العاشرة – ١٩٩١م – ج٥ – صـ ١٥٨).

(٣٤) مارجو بدران – رائدات الحركة النسوية المصرية – الإسلام والوطن – ترجمة: على بدران – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – سنة ٢٠٠٠م – صـ٢٤.

(٣٥) الشيخ محمد عبده هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل تركمان، من قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من أعمال مديرية البحيرة فى أسرة تعتز بكثرة رجالها ونسبتها. مولده: ولد الإمام فى شترا (من قرى الغربية بمصر). (انظر: خير الدين الزركلى – الأعلام – ج٦ـ دار العلم للملايين – ط ٩–١٩٩٠م– صـ ٢٥٢).

(٣٦) د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – دار الهلال – القاهرة – العدد ٣٤٧ – ١٩٧٩ م– صـ١٥.

(٣٧) د. السيد أحمد فرج – المؤامرة المسلمة تاريخ ووثائق – دار الوفاء للطباعة – المنصورة – الطبعة الأولى – ١٩٨٥م – صـ٥٤.

(٣٨) د. إجلال خليفة – الحركة النسائية الحديثة ـ ص٢٧.

(٣٩) د. محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – دراسة

وتحقيـق: د. محمد عمارة – طبعة بيروت – ١٩٧٢م–ج١– صـ ٢٥٧.

(٤٠) د. منى أحمد أبو زيد – الإمام محمد عبده وقضايا المرأة – صـ٣.

(٤١) إبراهيم عبده، درية شفيق – تطور النهضة النسائية فى مصر منذ عهد محمد على إلى عهد فاروق – مصر – سنة ١٩٤٥م – صـ ٩.

(٤٢) محمـد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٤ – صـ ٦٥٤.

(٤٣) د. منى أحمد أبو زيد – الإمام محمد عبده وقضايا المرأة – صـ٥.

(٤٤) د. محمد حسين الذهبى – التفسير والمفسرون ــ ج٢– دار الكتب – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٧٦م –صـ ٥٦٣.

(٤٥) الشـيخ إبراهيم على مصطفى النشـار – الإسـلام والمرأة – عالم الكتـب بيروت – ومكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٨٧م صـ من ٤٦: ٤٣٠.

(٤٦) محمـد عبده – تفسـير المنار – المنـار – القاهرة – ج٥ صـ٤٠٥ سورة البقرة آية ٢٣٢.

(٤٧) د. منى أحمد أبو زيد – الإمام محمد عبده وقضايا المرأة – صـ٥.

(٤٨) محمـد عبـده – الأعمـال الكاملة للإمام محمد عبده – دراسـة وتحقيق: د. محمد عمارة – ج٤ – صـ١٥١.

(٤٩) تشـارلز آدمس – الإسـلام والتجديد فى مصر – ترجمة: عباس محمـود – تقديـم مصطفى عبد الرازق – ترجمـة دائرة المعارف الإسلامية – مصر – ١٩٣٨م – صـ٢٢١.

(٥٠) سورة النساء ــ آية ١.

(٥١) سورة الأعراف ــ آية ١٨٩.

(٥٢) سورة الروم ــ آية٢١.

(٥٣) محمد عبده – تفسير المنار – ج٢ – صـ ٣٧٥، وأيضا: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٤ – صـ٦٣٠.

(٥٤) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح– باب المرأة راعية فى بيت زوجها– ج٥– صـ١٩٩٦– ومسلم فى كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهى عن إدخال مشقة عليهم– ج٣– صـ١٤٥٩.

(٥٥) سورة البقرة – آية ٢٢٨.

(٥٦) د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده– صـ ٥٧، ٥٨.

(٥٧) سورة البقرة – آية ٢٣١.

(٥٨) سورة النساء ــ آية١٩.

(٥٩) سورة الطلاق ــ آية ٦.

(٦٠) رواه ابن ماجة فى سننه.

(٦١) سورة النساء – آية ٣٤.

(٦٢) سورة النساء – آية ٣٤.

(٦٣) محمدعبده ــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ــ تحقيق: د. محمد عمارة ــ ج ٤ ــ ٦٣٠ــ٦٣٥.

(٦٤) محمد الغزالى، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ــ دار الشروق ــ ١٩٩٠م ــ صـ ١٧٥.

(٦٥) سورة النساء ــ آية ٣٥، ٣٤.

(٦٦) د. محمد عمارة ــ الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده ــ صـ ٦٠، وأيضا: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ــ ج٥ ــ صـ ١١٢

(٦٧) سورة النساء ــ آية ٣٤.

(٦٨) د. محمد عمارة ــ الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده ــ صـ ٦١، وأيضا: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ــ ج٥ ــ صـ ١١٢.

(٦٩) سورة البقرة ــ آية ٢٣١.

(٧٠) محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ــ تحقيق: د. محمد عمارة ــ ج٤ صـ٦٤٧ – ٦٥٠،وأيضا د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده ــ صـ ٨٩.

(٧١) سورة البقرة – آية ٢٣١.

(٧٢) محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده– تحقيق: د.محمد عمارة– ج٤ صـ٦٤٧ – ٦٥٠، وأيضا د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ٩٠.

(٧٣) سورة البقرة ــ آية ٢٣١.

(٧٤) سورة الروم ــ آية ٢١.

(٧٥) محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده تحقيق: د.محمد عمارة ج٤ صـ٦٤٨ – ٦٥٠، وأيضا د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ ٩١.

□□□